



في رحاب التوراة

دراسات وجارات روحانية مُعمّقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع
الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University



The Original text in English and translations to other languages can be found here:
[Covenant & Conversation](#) | [Matot](#) | [Keeping Our Word](#) | [The Rabbi Sacks Legacy](#)

"مَطَوّت" هو النصّ الأسبوعي التاسع من كتاب "بِمَدْبَار" (أي سفر العدد). يبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بِالآيةِ الثانيةِ من المقطع الثلاثين وينتهي بِالآيةِ الثانيةِ والأربعين من المقطع الثاني والثلاثين.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

الوَفَاءُ بِالوَعْدِ

يَسْتَهْلُ نصُّ مَطَوّت من نصوص التوراة آياته بالحديث عن تشريعات النَّذْرِ والقَسَمِ (اليمين). لكن ما الذي يفعله نصُّ كهذا في خِتامِ كتابِ بِمَدْبَار (سفر العدد) خاصة وأن بني إسرائيل على وشكِ الوصولِ إلى المحطة النهائية من رحلتهم إلى أرض الميعاد؟

إنَّ النَّذُورَ والأَيِّمانَ هي في الحقيقة تكليفٌ تصنعه الكلمات، إنها التّزاماتُ للقيام بأمرٍ مُعين أو الامتناع عن القيام بأمرٍ مُعين. كما أن الـ"نِذِر" (النَّذْرُ باللغة العبرية) يؤثّر على حالة السّيء، بِمعنى أنني حين أُنذِرُ نذراً بلاأُأتناول طعاماً مُعيّناً فإن هذا الطعامُ يَصْبِحُ حالياً مُحَرَّماً عَلَيَّ. أما اليمِينُ "شُفوعاه" فيؤثّر على الشخص لا على الشيء، بِمعنى أنّ ما صار مُحَرَّماً في هذه الحالة هو قياي بتناول الطعام، لا الطعام نفسه. لكن كلا المَعْنَيَيْنِ (النذر واليمين) يجتمعان في كلمة واحدة: وهذا هو المَعْنَى الجَوْهَرِيُّ لكلمة "إِسَار" باللغة العبرية والتي تعني الالتزام والارتباط والتعهد.

ومثلما توجَدُ حُرْمَةٌ للوفاء بالنذور والالتزام بالأيمان، فإن التَّحَلُّلَ مِنْهَا له حُرْمَةٌ وشروطٌ مُلْزِمَةٌ هو الآخر، كما لا يُمكن لأحدٍ أن يتحلَّلَ من نذوره وأيمانه لوحده، وهُنا يَضَعُ هذا النصّ الأسبوعيّ من نصوص التوراة بعضاً من التشريعاتِ الأساسية للقيام بذلك، في حين أن بَقِيَّةَ التشريعاتِ المُتعلّقة بهذا الأمر موجودةٌ في التوراة الشَّفوية (والتي يُعتَقَدُ أنها جزءٌ لا يَتَجَرَّأُ من التوراة). بالتالي نجد أن اليهودية تأخذُ مسألة الالتزامِ الشفهية على محمل الجد لدرجة أنّ "كُلُّ نِيدري" (أحد طرق التَّحَلُّلِ من النَّذُورِ والأَيِّمان) هو منسك هامٌّ من المناسك التي نُؤدِّيها في بداية أقدسِ يومٍ في السنة وهو يوم كيبور (يوم الغُفران).

والسبب الظاهري لوجود تشريعات النُور والأيمان في هذا الموضوع يكمن في أنّ الجزء السابق لهذا النصّ الأسبوعي من التوراة قد تطرّق لمسألة القربان اليهودية الجماعية. لكن اليهود كأفراد قدّموا القربان أيضاً لأنهم في بعض الأحيان ألزموا أنفسهم بذلك، وفي أحيان أخرى كانوا يقدمونها لأنهم اختاروا القيام بذلك طواعيةً، بالتالي فإن تشريعات تقديم القربان طواعيةً تنطبق عليهم أيضاً.

لكن يوجد سببٌ أعمق وراء ذلك، فبنو إسرائيل يقتربون من أرض الميعاد، وكانوا على وشك البدء ببناء مجتمع لا مثيل له آنذاك، مجتمعٌ حرٌّ قائمٌ على العهد بينهم وبين الله عزّ وجلّ. وفي هذا المجتمع لا يجب أن تكون سيادة القانون محمية بالقوة، بل يجب أن تكون محمية باحترام أفراد المجتمع لالتزاماتهم الأخلاقية، وباختيارهم الطوعي حين قبلوا بطاعة ما يأمرهم به الله عزّ وجلّ.

إنّ المجتمع القائم على هذا العهد هو مجتمعٌ توجد فيه حرمةٌ وقداسةٌ للكلمة، وهذا المبدأ راسخٌ في صميم العقيدة اليهودية كقاعدةٍ للحرية الجماعية وكدستورٍ للتحرر. وهذا المبدأ بحاجةٌ إلى تفسير، فكلّ مجتمع بحاجةٌ إلى قوانين، لأنه حين يخلو من القوانين ستعمُ فيه الفوضى. عموماً، توجد ثلاث أسباب تجعل البشر يلتزمون بالقوانين: السبب الأول هو معرفتهم بأنهم سيعاقبون في حال لم يلتزموا بها، وفي هذه الحالة يُمكننا وصفُ مثل هذا المجتمع بأنه قائمٌ على أساس القوة والسلطة. أما السبب الثاني فهو أن الالتزام بالقانون يصبُّ في مصلحتهم، وفي هذه الحالة يُمكننا وصفُ مثل هذا المجتمع بأنه قائمٌ على أساس المصلحة الذاتية. لكن كلا المجتمعين يوجد له سلبيات، فالسلطة تُفسد البشر، والسعي وراء المصلحة الذاتية يُفسد البشر هو الآخر.

وحين تكون السلطة فاسدةً فإن هذا سيؤدي إلى فقدان الحرية، وعندما يطغى السعي وراء المصالح الذاتية على المجتمع فإن هذا سيؤدي إلى فقدان التماسك الاجتماعي. وعندما يكثرُ البشر بأنفسهم لا بالآخرين فإن الناجح سينمو ويزدهر في حين سيعاني البقية، عندها سيتنحى العدل والتراحم جانباً ليحلّ مكانهما الطمع والاستغلال.

لكن التوراة تُبيّن لنا طريقاً أو سبباً ثالثاً يجعل الناس يلتزمون بالقوانين، وهو أنهم اختاروا طواعيةً أن يلتزموا بها. والأفراد في هذه الحالة ينتمون لمجتمع لا يقوم على القوة والسلطة أو السعي وراء المصلحة الذاتية، بل يقوم على أساس الاختيار الحرّ للالتزام بالواجبات الأخلاقية، فالتوراة هي القصة التي تبين لنا كيف جاء بنو إسرائيل بهذه الفكرة الخلاقة: فكرة سياسة العهد.

ولسخرية القدر فإن فريدريك نيتشه - الذي يُعتبر من أكبر منتقدي الديانة اليهودية - كان الشخص الذي رأى أن قدرتنا كبشر على إلزام أنفسنا بالوعود عن طريق الكلمات التي نقطعها تعتبرُ أساساً للأخلاقيات وللحرية الإنسانية، وهذا ما عبر عنه في كتابه "في جنيلوجيا الأخلاق" (*On the Genealogy of Morality*): حين قال:

"أليست تربية حيوانٍ يمتارُ بالقدرة على إطلاق الوعود هي مهمّةٌ مُتناقضةٌ أخذتها الطبيعة على عاتقها بالنسبة للنوع البشري؟ أليست هذه هي الإشكالية الحقيقية للبشر؟"

ويمتارُ النوع البشري عن سائر الحيوانات الأخرى بقدرته على استخدام اللغة وهذا أمرٌ بديهيٌّ ومعروفٌ. في الوقت نفسه، فإن ما رآه نيتشه هو أننا نستخدم اللغة بطرقٍ عديدة ومختلفة، فنحن نستخدمها لغرض الوصف والتواصل والتصنيف والتفسير وغيرها من الأغراض. بالتالي فإن اللغة في هذا السياق هي بمثابة انعكاسٍ للواقع وترجمة لما يتضمنه من إشاراتٍ ورموزٍ وصورٍ.

لكن بإمكاننا استخدام اللغة بطريقةٍ مختلفة تماماً، لا لوصف أمرٍ معين بل لإلزام أنفسنا بشكلٍ من أشكال السلوك مستقبلاً. فعلى سبيل المثال، عندما يقف العريس تحت "الخوپاه" (الخوپاه هي عريشة صغيرة يقف تحتها العريس والعروس كجزء من تقاليد الزواج في اليهودية وتقام هذه العريشة على أربعة أعمدة) ويقول لعروسه: "أنت مقدسة بالنسبة لي" فهو لا يصف الزواج لأنه يتزوج فعلياً، بل هو يلزم نفسه بعددٍ من الالتزامات تجاه المرأة التي اختارها لتكون زوجته له، وهذا ما يُطلق عليه الفلاسفة في وقتنا الحالي مُصطلح (Performative Utterance) أي الكلام الأدائي، وهذا ما اعتبره نيتشه أمراً أساسياً بالنسبة للإنسان، فعبر عن هذا قائلاً:

حتى نمتلك قدراً من السيطرة على المستقبل، فإنه ينبغي على الإنسان أولاً أن يتعلم كيف يُفرّق بين ما يحدث بالصدفة وبين ما يحدث عمداً... وقبل أن يقوم بهذا ينبغي عليه أن يكون - حتى في نظرتِه لنفسه - مستقراً ومَوْضِع ثقةٍ وأن يرى الضرورة فيما يقوم به من أفعال، وذلك حتى يُحاسبَ عن مُستقبله حين يُلزم نفسه بوعده ما.

وحيثُ نلزم أنفسنا بكلمات مُعينة فإننا نستخدمُ اللغة حتى نصنع أمراً، لا لِنَصِفَهُ، لأننا حينها نصنعُ مُستقبلاً مُنظماً من فوضى الغرائز والشهوات البشرية. وما يجعلُ البشرَ فريدين من نوعهم ليس استخدامهم للغة، فهناك حيوانات أخرى تستخدمُ أشكالاً مُختلفة من أشكال اللغة، فالدلافينُ تفعلُ ذلك، والحالُ نفسه ينطبقُ على الحيوانات التي تنتمي لعائلة الرئيسيات، وحتى النحلُ يؤدّي رقصاتٍ مُعقدة ليرسل من خلالها معلومات لمجموعاتٍ أخرى من النحل.

لكن ما يجعلنا كبشر فريدين من نوعنا هو أننا نستخدمُ اللغة لنلزم أنفسنا بسلوكنا المُستقبلي حتى نتمكن من بناء رابطة الثقة المتبادلة مع غيرنا من البشر، وخيرُ مثالٍ على هذه الرابطة هو قطعُ الوعود والزواج، وهنالك مثالٌ ثالثٌ - وهو أمرٌ تمتازُ به اليهودية دون غيرها - يتمثل فيما يفهمه المُجتمعُ على أنه عهدٌ مكوّنٌ من مجموعة وعود مُشتركة ومُتبادلة بين الشعب اليهودي والله عزّ وجلّ. إن استخدامنا للغة على هذا النحو، لا لوصف أمرٍ موجود بالفعل بل لِنَصنع أمرٍ لم يكن موجوداً من قبل، هو الاستخدامُ الذي يربطنا بالله عزّ وجلّ، فالله استخدم الكلمات لِيَجلب الكون الطبيعي إلى الوجود، مصداقاً لما تُخبرنا به آياتُ التوراة: "قال اللهُ... فكان".

إننا نستخدمُ الكلمات لنجلبُ كوناً اجتماعياً إلى الوجود، وما تُخبرنا به التوراة هو أنّ الكلمات من شأنها أن تصنعُ أمراً معيناً لأن الكلمات مقدسةٌ وملزمةٌ لمن ينطقُ بها. وعندما نلزمنا الكلمات بأمرٍ معين فإن هذا هو ما يُؤلّد الثقة، والثقة بالنسبة للمجتمع هي كالتنبؤ بالنسبة للطبيعة: إنها أساسُ النظام المُخالف للفوضى.

إن الأنظمة الاجتماعية في المُجتمع الحرّ تقوم على أساس الثقة، والثقة تعني أن نلتزم بكلماتنا، وأن نلتزم بما سنقومُ به فعلاً. وأن نلزم أنفسنا بما نقطعُه من نذورٍ وأيمانٍ ووعودٍ أو أي التزامٍ شفهيٍّ آخر. وهذا يعني أننا سوف نفي بهذه الالتزامات إلا في حالة وجود ظروفٍ قاهرةٍ وغير متوقعة تحولُ دون ذلك.

وحيثُ تتحصّل روابطُ الثقة فإن العلاقات الاجتماعية تتحصّل هي الأخرى، وعندها سيصبح المُجتمعُ مُعتمداً على جهات تنفيذ القانون أو غيرها من أشكال استخدام القوة. وحيثُ يتمُّ الإفراطُ في استخدام القوة فإن المُجتمع لن يكونُ حرّاً على الإطلاق. والطريقة الوحيدة التي تجعلُ البشرَ الأحرارَ يصنعون روابطٍ بينهم تقومُ على أساس التعاضد والتعاون دون الاستعانة بالقوة تكونُ عبر احترام الالتزامات الشفهية التي يلزمون أنفسهم بها.

إنّ الحرية بحاجةٌ للثقة، والثقة بحاجةٌ إلى بشرٍ يلتزمون بكلماتهم، والالتزامُ بالكلمة يعني مُعاملة الكلمة على أنها أمرٌ مقدّس، وبأنّ النذورَ والأيمانَ لها حرمةٌ يجب أن تُصان. و فقط في ظلّ ظروفٍ محددة وقاهرةٍ بإمكان الإنسان أن يكونَ حرّاً فيما يقطعُه من وعودٍ ونذورٍ وأيمان. ولهذا السببُ تحديداً نفهم الحكمة من وراء تذكير بني إسرائيل بهذه الخاصية المقدّسة للنذور والأيمان بمجرد اقترابهم من الأرض المقدّسة، ففيها المُجتمع الحرّ الذي ينبغي عليهم إقامته.

وقد يكونُ الإغواءُ بعدم الإيفاء بالوعدِ طاعياً ومُسيطرّاً عليك، خاصة إن كان عدم الإيفاء بهذا الوعدِ يصبُ في مصلحتك، ولهذا السببُ تحديداً نجدُ أن الإيمان بالله عزّ وجلّ أمرٌ أساسيٌّ جداً، فاللهُ يسمع ويعلمُ ما يجول بخاطرنَا من أفكار وما يصدرُ عنا من أقوال أو أفعال، وهو الذي سيحاسبنا عن الالتزامات التي نلزمُ أنفسنا بها. ولربّما يبدو لنا الأمرُ غريباً في وقتنا الحالي حين نجدُ أن الفيلسوف الإنجليزي الذي عاش في القرن السابع عشر جون لوك والمعروف عنه بأنه أبٌ للتسامح والليبرالية كان يعتقدُ بأنه لا يجبُ أن تُمنح الجنسية للمُلاحدين، إيماناً منه بأن عدم إيمانهم بالله لا يجعلهم موضع ثقة بأنهم سوف يحترمون كلمتهم.

بالتالي، فإن ظهورَ تشريعاتِ النذورِ والإيمانِ في ختامِ سفرِ العددِ بالتزامنِ مع اقترابِ بني إسرائيلِ من دخولِ الأرضِ المقدسةِ لم يكنِ من قبيلِ الصدفةِ، والعبرةُ من ذلكِ لا تزالُ قائمةً حتى يومنا هذا، فالمُجتمعُ الحُرُّ يقومُ على أساسِ الثقةِ، والثقةُ تقومُ على أساسِ الالتزامِ بالكلمةِ، وهكذا يُمكنُ للبشرِ أن يقتدوا باللهِ عزَّ وجلَّ في استخدامهِ اللغةِ للخلقِ. فالكلماتُ تخلقُ الالتزاماتِ الأخلاقيةِ، والالتزاماتُ الأخلاقيةِ حين يتمُّ الالتزامُ بها بمُنتهى المسؤوليةِ واحترامها بمُنتهى الإخلاصِ فإنها تخلقُ القُدرةَ والإمكانيةَ لبناءِ مُجتمعٍ حُرٍّ. لهذا يجبُ علينا أن نَقومَ بما قلنا أننا سنقومُ به، وحين نَفشلُ في الالتزامِ بكلماتنا وبالوفاءِ بوعدنا فإننا بنهايةِ المطافِ سَنَفقِدُ حُرِّيَتنا.

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

